

من غضب الرشيد

جرى لعبد الله بن مالك الخزاعي مع الرشيد. حين غضب عليه، أن أمر أهله وحشمه وجميع قرابته أن يجتنبوا كلامه وخدمته ومعاطاته حتى أثر ذلك في نفسه وبدنه، فتحاماه أقرب الناس منه من ولد وأهل. فلم يدين منه أحد، ولم يطف به.

فجاءه محمد بن إبراهيم الهاشمي. وهو كان أحد أدوائه، في جوف الليل، فقال له: يا أبا العباس! إن لك عندي يدا لا أنساها، ومعروفا ما أكفره، وقد علمت ما تقدم به أمير المؤمنين في أمرك، وهأنذا بين يديك، ونصب عينيك! فمرني بأمرك، فوالله لأجعلن نفسي وقاية نفسك، وأسوقها في كل ما نكأها أو جرحها.

فقال له عبد الله خيرا، وأثنى عليه، وأخبره بعذره في مودة أمير المؤمنين عليه. فوعده محمد أن يكلم أمير المؤمنين، ويخبره باعتذاره. فلما أصبح محمد، وافاه رسول أمير المؤمنين، فركب. فلما دخل عليه، قال: من أتيت في هذه الليلة؟ قال: عبدك، يا أمير المؤمنين، عبد الله بن مالك، وهو يحلف بطلاق نسائه، وعتق ممالئكه، وصدقة ماله مع عشرين نذرا يهديها إلى بيت الله الحرام حافيا راجلا، والبراءة من ولاية أمير المؤمنين إن كان ما بلغ أمير المؤمنين سمعه الله من عبد الله بن مالك، أو اطلع عليه أو هم به، أو أضمره أو أظهره.

قال: فأطرق الرشيد مليا مفكرا، وجعل محمد يلحظه، ووجهه يسفر ويشرق حتى زال ما وجده. وكان قد حال لونه حين دخل عليه، ثم رفع رأسه فقال: أحسبه صادقا يا محمد، فمره بالرواح إلى الباب. قال: وأكون معه، يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم.

فانصرف محمد إلى عبد الله، فبشره بجميل أمره. وأمره بالركوب رواحاً، فدخل جميعا، فلما بصر عبد الله بالرشيد، انحرف نحو القبلة، فخر ساجدا، ثم رفع رأسه، فاستدناه الرشيد. فدنا وعيناه تهملان. فأكب عليه، فقبل رجله وبساطه وموطىء قدميه، ثم طلب أن يأذن له في الاعتذار. فقال: ما بك حاجة إلى أن تعتذر، إذ عرفت عذرك. قال: فكان عبد الله بعد، إذا دخل على الرشيد، رأى فيه بعض الإعراض والانتباض. فشكا ذلك إلى محمد بن إبراهيم، فقال محمد: يا أمير المؤمنين! إن عبد الله يشكو أثرا باقيا من تلك النبوة التي كانت من أمير المؤمنين، ويسأل الزيادة في بسطه له. فقال الرشيد: يا محمد! إنا معشر الملوك، إذا غضبنا على أحد من بطانتنا، ثم رضيينا عنه بعد ذلك، بقي لتلك الغضبة أثر لا يخرجها ليل ولا نهار.

كتاب (التاج في أخلاق الملوك) للجاحظ

أعوذ بعدلك من جور مروان !

ذكر أنّ معاوية بن أبي سفيان جلس ذات يوم بمجلس كان له بدمشق على قارعة الطريق ، وكان المجلس مفتوح الجوانب لدخول النسيم . فبينما هو على فراشه وأهل مملكته بين يديه . إذ نظر إلى رجل يمشى نحوه وهو يسرع فى مشيته راجلا حافيا ، وكان ذلك اليوم شديد الحر . فتأمله معاوية ثم قال لجلسائه : لم يخلق الله ممن أحتاج إلى نفسه فى مثل هذا اليوم . ثم قال : يا غلام سر إليه واكشف عن حاله وقصته فوالله لئن كان فقيرا لأغنيته ، ولئن كان شاكيا لأنصفته ، ولئن كان مظلوما لأنصرته ، ولئن كان غنيا لأفقرنه .

فخرج إليه الرسول متلقيا فسلم عليه فرد عليه السلام . ثم قال له : ممن الرجل؟ قال : سيدى أنا رجل أعرابى من بنى عذرة ، أقبلت إلى أمير المؤمنين مشتكيا إليه بظلامه نزلت بى من بعض عماله . فقال له الرسول : أصبحت يا أعرابى؟ ثم سار به حتى وقف بين يديه فسلم عليه بالخلافة ثم أنشأ يقول :

معاوى يا ذا العلم والحلم والفضل	ويا ذا الندى والجود والنايل الجزل
أتيتك لآ ضاق فى الأرض مذهبى	فيا غيث لا تقطع رجائى من العدل
وجد لى بإنصافٍ من الجائر الذى	شوانى شيا كان أيسره قتلى
سبانى سعدى وأنبرى لخصومتى	وجار ولم يعدل ، وأغصبنى أهلى
قصدت لأرجو نفعه فأتابنى	بسجن وأنواع العذاب مع الكبل
وهم بقتلى غير أن منيتى	تأبت ، ولم أستكمل الرزق من أجلى
أغثنى جزاك الله عنى جنّة	فقد طار من وجد بسعدى لها عقلى

فلما فرغ من شعره قال له معاوية : يا اعرابى إنى أراك تشتكى عاملا من عاملنا ولم تسمه لنا ! قال : أصلح الله أمير المؤمنين . وهو والله ابن عمك مروان بن الحكم^(١) عامل المدينة . قال معاوية : وما قصّتك معى يا أعرابى .

قال : أصلح الله الأمير ، كانت لى بنت عم خطبتها إلى أبيها فزوجنى منها . وكنت كلفا بها لما كانت فيه من كمال جمالها وعقلها والقراة . فبقيت معها يا أمير المؤمنين . فى أصلح

(١) هو مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية ، رابع الخلفاء الأمويين (٦٤ - ٦٨٤هـ / ٦٨٤ - ٦٨٥م) ، ولد بمكة العام الثانى للهجرة . يعده البعض من صفار الصحابة ، وهو من رواة الحديث ، صحب عمر بن الخطاب وكان كاتباً لعثمان فى خلافته وتولى إمارة المدينة وموسم الحج فى عهد معاوية واستمر كذلك فى أوائل عهد يزيد بن معاوية حتى أخرج من المدينة إلى دمشق بعد أن رفض أهل المدينة مبايعة يزيد ، تولى الخلافة بعد معاوية بن يزيد عام ٦٤ هـ .

حال وأنعم بال، مسرورا زمانا، قرير العين. وكانت لي صرمة من إبل وشويبهات، فكنت أعولها ونفسي بها. فدارت عليها أفضية الله وحوادث الدهر، فوقع فيها داء فذهبت بقدرة الله. فبقيت لا أملك شيئا، وصرت مهينا مفكرا، قد ذهب عقلي، وساءت حالي، وصرت ثقلا على وجه الأرض. فلما بلغ ذلك أباهما حال بيني وبينها، وأكرني، ووجدني، وطردي، ودفعها عني. فلم أدر لنفسي بحيلة ولا نصرة. فأنتيت إلى عاملك مروان بن الحكم مشتكيا بعمي، فبعث إليه، فلما وقف بين يديه، قال له مروان: يا أيها الرجل لم حلت بين ابن أخيك وزوجته؟ قال: أصلح الله الأمير، ليس له عندي زوجة ولا زوجته من ابنتي قط. قلت أنا: أصلح الله الأمير، أنا راض بالجارية. فإن رأى الأمير أن يبعث إليها ويسمع منها ما تقول؟ فبعث إليها فأنتت الجارية مسرعة، فلما وقفت بين يديه ونظر إليها وإلى حسنها وقعت منه موقع الإعجاب والاستحسان، فصار لي، يا أمير المؤمنين خصما وانتهرني، وأمر بي إلى السجن. فبقيت كأني خررت من السماء في مكان سحيق، ثم قال لأبي بعدى: هل لك أن تزوجها مني، وأنقدك ألف دينار، وأزيدك أنت عشرة آلاف درهم تنتفع بها. وأنا أضمن طلاقها؟ قال له أبوها: إن أنت فعلت ذلك زوجتها منك.

فلما كان من الغد بعث إلى، فلما أدخلت عليه نظر إلى كالأسد الغضبان، فقال لي: يا أعرابي طلق سعدى. قلت: لا أفعل. فأمر بضربي ثم ردني إلى السجن. فلما كان في اليوم الثاني قال: علي بالأعرابي. فلما وقفت بين يديه، قال: طلق سعدى. فقلت: لا أفعل. فسلط علي يا أمير المؤمنين خدامه فضربوني ضربا لا يقدر أحد على وصفه. ثم أمر بي إلى السجن، فلما كان في اليوم الثالث قال: علي بالأعرابي، فلما وقفت بين يديه قال: علي بالسيف والنطع وأحضر السيف، ثم قال: يا أعرابي، وجلالة ربي، وكرامة والدي، لئن لم تطلق سعدى لأفرقن بين جسدك وموضع لسانك.

فخشيت على نفسي القتل فطلقتها طلقة واحدة على طلاق السنة. ثم أمر بي إلى السجن فحبسني فيه حتى تمت عدتها ثم تزوجها، فبني بها، ثم أطلقني. فأنتيتك مستغيثا قد رجوت عدلك وإنصافك، فارحمني يا أمير المؤمنين. فوالله يا أمير المؤمنين لقد أجهدني الأرق. وأذابني القلق، وبقيت في حبها بلا عقل، ثم انتحب حتى كادت نفسه تفيض. ثم أنشأ يقول:

في القلب منى ناراً	النار فيه الدمار
والجسم منى سقيم	فيه الطبيب يحار
والعين تهطل دمعاً	فدمعها مدرار
حملت منه عظيماً	فما عليه اصطبار

فليس ليلى ليلٌ ولانهارى نهار
 فارحم كئيبا حزينا فؤاده مستطار
 اردد على سعادى يثيبك الجبار

ثم خر مغشيا عليه بين يدي أمير المؤمنين كأنه قد صعق به قال: وكان في ذلك الوقت معاوية متكئا، فلما نظر إليه قد خر بين يديه قام ثم جلس، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. اعتدى والله مروان بن الحكم ضارا في حدود الدين. وإحسارا في حرم المسلمين: ثم قال: والله يا أعرابي لقد أتيتني بحديث ما سمعت بمثله. ثم قال: يا غلام إلى بداره وقرطاس فكتب إلى مروان: أما بعد، فإنه بلغني عنك أنك اعتديت على رعيتك في بعض حدود الدين، وانتهكت حرمة لرجل من المسلمين. وإنما ينبغي لمن كان واليا على كورة أو إقليم أن يغض بصره وشهواته، ويزجر نفسه عن لذاته. وإنما الوالي كالراعى لغنمه، فإذا رفق به بقيت معه، وإذا كان لها ذئبا فمن يحوطها بعده. ثم كتب بهذه الأبيات:

قد كنت عندى ذا عقل وذا أدبٍ مع القراطيس تمثالا وفرقان
 حتى أتانا الفتى العذريّ منتحبا يشكو إلينا ببثّ ثمّ أحزان
 أعطى الإله يميننا لا أكفرها حقّا وأبرأ من دينى وديانى
 إن أنت خالفتنى فيما كتبت به لأجعلنك لحما بين عقبانى
 طلق سعاد وعجلها مجهّزة مع الكميت، ومع نصر بن ذبيان
 فما سمعت كما بلغت في بشر ولا كفعلك حقا فعل إنسان
 فاختر لنفسك إمّا أن تجود بها أو أن تلاقى المنايا بين أكفان

ثم ختم الكتاب. وقال: على بنصر بن ذبيان والكميت صاحبي البريد. فلما وقفا بين يده قال: اخرجنا بهذا الكتاب إلى مروان بن الحكم ولا تضعاه إلا بيده. قال فخرجنا بالكتاب حتى وردا به عليه، فسلما ثم ناولاه الكتاب. فجعل مروان يقرأه ويردده، ثم قام ودخل على سعدى وهو باك، فلما نظرت إليه قالت له: سيدى ما الذى يبكيك؟ قال كتاب أمير المؤمنين، ورد على فى أمرى فيه أن أطلقك وأجهزك وأبعث بك إليه. وكنت أود أن يتركنى معك حولين ثم يقتلنى، فكان ذلك أحب إلى. فطلقها وجهازها ثم كتب إلى معاوية بهذه الأبيات:

لا تعجلن أمير المؤمنين فقد أوفى بنذرك فى رفق وإحسان
 وما ركبت حراما حين أعجبنى فكيف أدعى باسم الخائن الزانى

أعذر فإنك لو أبصرتها لجرت
فسوف يأتيك شمس لا يعادلها
لولا الخليفة ما طلقتها أبدا
على سعادٍ سلامٍ من فتى قلقٍ
منك الأماقي على أمثال إنسان
عند الخليفة إنسٌ لا ولا جان
حتى أضمن في لحدٍ وأكفان
حتى خلقتَه بأوصابٍ وأحزان

ثم دفعه إليهما، ودفع الجارية على الصفة التي حدث له. فلما وردا على معاوية فك كتابه وقرأ أبياته ثم قال: والله لقد أحسن في هذه الأبيات، ولقد أساء إلى نفسه. ثم أمر بالجارية فأدخلت إليه، فإذا بجارية رعبوية لا تبقى لناظرها عقلا من حسننها وكمالها. فعجب معاوية من حسننها ثم تحول إلى جلسائه وقال: والله إن هذه الجارية لكاملة الخلق فلئن كملت لها النعمة مع حسن الصفة، لقد كملت النعمة لمالكها. فاستنطقها، فإذا هي أفصح نساء العرب. ثم قال: على بالأعرابي.

فلما وقف بين يديه، قال له معاوية: هل لك عنها من سلو، وأعوذك عنها ثلاث جوار أبقار مع كل جارية منهن ألف درهم، على كل واحدة منهن عشر خلع من الخبز والديباج والحريز والكتان، وأجرى عليك وعليهن ما يجرى على المسلمين، وأجعل لك ولهن حظا من الصلات والنفقات؟ فلما أتم معاوية كلامه غشى على الأعرابي وشهق شهقة ظن معاوية أنه قد مات منها. فلما أفاق قال له معاوية: ما بالك يا أعرابي؟ قال: شر بال. وأسوأ حال، أعوذ بعدلك يا أمير المؤمنين من جور مروان. ثم أنشأ يقول:

لا تجعلني هداك الله من ملكٍ
أردد سعاد علي حران مكتئب
قد شفته قلق ما مثله قلقٌ
والله والله لا أنسى محبتَها
كيف السلو وقد هام الفؤاد بها
فأجمل بفضلك وافعل فعل نى كريمة
كالستجير من الرماء بالنار
يمسى ويصبح فسى هم وتذكار
وأسعر القلب منه أي إسعار
حتى أغيب في قبري وأحجارى
فإن فعلت فإنى غير كفار
لا فعل غيرك، فعل اللؤم والعار

ثم قال: والله يا أمير المؤمنين لو أعطيتني كل ما احتوته الخلافة ما رضيت به دون سعدى. ولقد صدق مجنون بنى عامر حيث يقول:

أبى القلب إلا حب ليلى وبغضت
وما هى إلا أن أراها فجاءة
إلى نساء ما لهن ذنوب
فأبهت حتى لا أكاد أجيب

فلما فرغ من شعره، قال له معاوية: يا أعرابي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: إنك

مقر عندنا أنك قد طلقتهما، وقد بانك منك ومن مروان، ولكن نخيرها بيننا. قال: ذلك إليك، يا أمير المؤمنين. فتحول معاوية نحوها ثم قال لها: يا سعدى أينما أحب إليك: أمير المؤمنين في عزه وشرفه وقصوره، أو مروان في غضبه واعتدائه، أو هذا الأعرابي في جوعه وأطماره؟ فأشارت الجارية نحو ابن عمها الأعرابي، ثم أنشأت تقول:

هذا وإن كان في جوع وأطمار أعزّ عندي من أهلى ومن جاري
وصاحب التّاج أو مروان عامله وكلّ ذى درهم منهم ودينار

ثم قالت: لست والله يا أمير المؤمنين لحدثان الزمان بخاذلته، ولقد كانت لى معه صحبة جميلة، وأنا أحق من صبر معه على السراء والضراء، وعلى الشدة والرخاء، وعلى العافية والبلاء، وعلى القسم الذى كتب الله لى معه. فعجب معاوية ومن معه من جلسائه من عقلها وكمالها ومروءتها وأمر لها بعشرة آلاف درهم وألحقها فى صدقات بيت المسلمين.

من كتاب (أخبار النساء) لابن الجوزى.

□□□

من قضاء المنذر بن سعيد

كان القاضي منذر بن سعيد من ذوى الصلابة فى أحكامه والمهابة فى أقضيته وقوة القلب فى القيام بالحق فى جميع ما يجرى على يديه. لا يهاب فى ذلك الأمير الأعظم، فمن دونه ومن مشهور ما جرى له فى ذلك قصته المشهور فى أيتام أخى نجدة. حدث بها جماعة من أهل العلم والرواية، وهى أن الخليفة الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد، احتاج إلى شراء دار بقرطبة لحظية من نسائه تكرم عليه، فوقع استحسانه على دار كانت لأولاد زكريا أخى نجدة، وكانت بقرب النثارين فى الرض الشرقى منفصلة عن دوره يتصل بها حمام العامة له غلة واسعة، وكان أولاد زكريا أخى نجدة أيتاما فى حجر القاضي، فأرسل الخليفة له من قومها بعدد ما طابت به نفسه، وأرسل أناسا أمرهم بمدخله وصى الأيتام فى بيعها عليهم، فذكر أنه لا يجوز إلا بأمر القاضي إذ لم يجز بيع الأصل إلا عن رأيه ومشورته.

فأرسل الخليفة إلى القاضي منذر فى بيع هذه الدار فقال لرسوله: البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه منها الحاجة ومنها الوهى الشديد (الضعف) ومن الغيبة (حسن الحال)، فأما الحاجة فلا حاجة لهؤلاء الأيتام إلى البيع، وأما الوهى فليس فيها، وأما الغيبة فهذا مكانها، فإن أعظاهم أمير المؤمنين فيها ما تستبين به الغيبة أمرت وصيهم بالبيع وإلا فلا. فنقل جوابه هذا إلى الخليفة، فأظهر الزهد فى شراء الدار طمعا أن يتوخى رغبته فيها، وخاف القاضي أن تنبعث منه عزيمة تلحق الأولاد سورتها فأمر وصى الأيتام بنقض الدار وبيع انقاضها، ففعل ذلك وباع الانقاض وكانت لها قيمة أكثر مما قومت به للسلطان، فاتصل الخبر به فعز عليه خرابها وأمر بتوقيف الوصى على ما أحدثه فيها. فأحال الوصى على القاضي أنه أمره بذلك، فأرسل عند ذلك للقاضي منذر بن سعيد وقال له: أنت أمرت بنقض دار أخى نجدة؟ فقال له: نعم، قال له: وما دعاك إلى ذلك؟ قال أخذت فيها يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (٧٦) ﴿١﴾ مقوموك لم يقدروها إلا بكذا، وبذلك تعلق وهمك فقد نقض فى أنقاضها أكثر من ذلك، وبقيت القاعة والحمام فضلا، ونظر الله تعالى للأيتام، فصبر الخليفة عبد الرحمن على ما أتى من ذلك فقال: نحن أول من انقاد إلى الحق، فجزاك الله تعالى عنا وعن أمانتك خيرا.

من كتاب (مطمح الأنفس ومسرح التانس فى ملح أهل الأندلس) للفتح بن خاقان.

حديث السخاء

حدث إبراهيم الحريبي، وقد سأله عن حديث عباس البقال.
فقال: خرجت إلى الكباش ووزنت لعباس البقال دانقاً^(١) إلا فلساً.
فقال لي: يا أبا إسحاق حدثني حديثاً في السخاء، ففعل الله يشرح صدري فأعمل شيئاً.

قال: قلت له نعم: روى عن الحسن بن علي^(٢) رضي الله عنهما أنه كان ماراً في بعض حيطان المدينة، فرأى أسود بيده رغيف يأكل لقمة، ويطعم الكلب لقمة، إلى أن شاطره الرغيف.

فقال له الحسن: ما حملك على أن شاطرته؟ فلم تغابنه (تنقصه) فيه بشيء.

فقال: استحت عيناى من عينيه أن أغابنه.

فقال له الحسن: أقسمت عليك لا برحت حتى أعود إليك.

فمر فاشترى الغلام والحائط، وجاء إلى الغلام.

فقال: يا غلام، قد اشتريتك، فقام قائماً.

فقال: السمع والطاعة لله ولرسوله ولك يا مولاي.

قال: وقد اشتريت الحائط، وأنت حر لوجه الله تعالى، والحائط هبة منى إليك. فقال

الغلام: يا مولاي، قد وهبت الحائط للذى وهبتني له.

قال إبراهيم: فقال عباس البقال: حسن والله يا أبا إسحاق. يا غلام: لأبى إسحاق

دانق إلا فلساً، أعطه بدانق ما يريد ولا تنقصه شيئاً.

فقلت: والله لا أخذت إلا بدانق إلا فلساً.

من كتاب (معجم الأدباء) لياقوت الحموي.

(١) الدانق هو مكيال إسلامي يستعمل في الوزن والكيل أثناء العصور الإسلامية، وكلمة دانق ذات أصل يوناني معرب، والدانق يساوي حوالي سدس درهم، والدرهم حوالي ٢.٨ جرام فضة.

(٢) هو الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. حفيد النبي صلى الله عليه وسلم فأمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله، ولد سنة ٣ هـ وتوفي سنة ٥٠ هـ، قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، تولى خلافة المسلمين حوالي ستة أشهر بعد وفاة والده على بن أبي طالب عام ٤٠ هـ، لكنه تنازل عنها لمعاوية بن أبي سفيان حقناً لدماء المسلمين.

ابن العاص.. رسول نفسه !

قال ابن الكلبي: لما فتح عمرو بن العاص^(١) قيسارية سار حتى نزل على غزة، فبعث إليه عالجها أن أرسل إلى رجلا من أصحابك أكلمه.

ففكر عمرو فقال: ما لهذا العالج أحد غيري.

فقام حتى دخل على العالج فكلمه، فسمع كلاما لم يسمع مثله قط.

فقال له العالج: حدثني هل من أصحابك أحد مثلك؟

قال: لا تسأل عن هوانى عندهم إذا بعثوني إليك وعرضوني لما عرضوني فلا يدرون ما

تصنع بي.

قال: فأمر له بجائزة وكسوة، وبعث إلى البواب إذا مر بك فاضرب عنقه وخذ ما

معه.

فمر برجل من النصارى من غسان عرفه. فقال: يا عمرو قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج.

فرجع فقال له الملك: ما رذك إلينا؟

قال: نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك ليسع بنى عمى، فأردت أن آتيك بعشرة منهم

تعطيهم هذه العطية فيكون معروفك عند عشرة خيرا من أن يكون عند واحد.

قال: صدقت أعجل بهم، وبعث إلى البواب خلى سبيله.

فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمن قال: لا عدت لمثلها أبدا.

فلما صالحه عمرو ودخل عليه العالج فقال له: أنت هو..؟

قال: علي ما كان من غدرك.

من كتاب (الأذكياء) لابن الجوزى.

(١) هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشي، ولد بمكة عام ٥١ قبل الهجرة، كان ممن حاربوا النبي حتى إسلامه في العام الثامن للهجرة قبل فتح مكة، فقدم المدينة مع خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة، يعد من أهم قادة الفتح الإسلامي فقد اشتهر بشدة الذكاء والدهاء الحربي، ولاة الخليفة أبو بكر أميرا على واحد من الجيوش الأربعة التي اتجهت لفتح الشام، شارك بجيشه في معركة اليرموك الفاصلة عام ١٤ للهجرة مع باقى الجيوش الإسلامية عقب وصول خالد بن الوليد بجيشه من العراق، وبعد فتح الشام انتقل لفتح فلسطين، وخلال عهد الخليفة عمر ولاة قيادة جيوش فتح فلسطين والأردن عقب موت القائد يزيد بن أبي سفيان، ثم كلفه قيادة جيش فتح مصر ففتحها عام ٢١ للهجرة وأصبح واليا عليها حتى عزله الخليفة عثمان. ثم ولاة الخليفة معاوية مرة أخرى فظل واليا على مصر إلى أن مات عام ٤٣هـ للهجرة ودفن بالقرب من المقطم.

الحجاز.. بين ابن طلحة والحجاج

حدثنا محمد بن أبي الأزهر، قال: حدثنا الزبير بن بكار، قال: وحدثني محمد بن يحيى، قال: حدثني عمران بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف الزهري قال: لما ولي الحجاج بن يوسف الحرمين، بعد قتل عبد الله بن الزبير استحضر إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله^(١) وقربه في المنزلة فلم يزل على حاله عنده، حتى خرج إلى عبد الملك زائرا له فخرج معه فعادله لا يترك في بره وإجلاله وتعظيمه شيئا.

فلما حضر باب عبد الملك حضر به معه، فدخل على عبد الملك فلم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال: قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز، لم أدع له والله فيها نظيرا في كمال المروءة والأدب والديانة، ومن الستر وحسن المذهب والطاعة والنصيحة، مع القرابة ووجوب الحق: إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله وقد أحضرته بابل لتسهيل عليه إذنك وتلقاه ببشرك وتفعل ما تفعل بمثله ممن كانت مذاهبه مثل مذاهبه.

فقال عبد الملك: ذكرتنا حقا واجبا ورحما قريبا، يا غلام ائذن لإبراهيم بن طلحة، فلما دخل عليه قربه حتى أجلسه على فرشه، ثم قال له: يا ابن طلحة! إن أبا محمد أذكرنا ما لم نزل نعرفك به من الفضل والأدب وحسن المذهب، مع قرابة الرحم ووجوب الحق، فلا تدعن حاجة في خاص أمرك ولا عامته إلا ذكرتها، قال: يا أمير المؤمنين! إن أولى الأمور أن تفتتح بها حوائج وترجى بها الزلف ما كان لله عز وجل رضا، ولحق نبيه صلى الله عليه وسلم أداء، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة، وإن عندي نصيحة لا أجد بدا من ذكرها ولا يكون البؤح بها إلا وأنا خال، فأخلى ترد عليك نصيحتي، قال: دون أبي محمد؟ قال: نعم، قال: قم يا حجاج، فلما جاوز الستر قال: قل يا ابن طلحة نصيحتك. قال: الله أمير المؤمنين، قال: الله، قال: إنك عمدت إلى الحجاج مع تغطرسه وتعترسه، وتعجرفه وبعده عن الحق وركونه إلى الباطل، فوليته الحرمين، وفيهما من فيهما، وبهما من بهما من المهاجرين والأنصار، والموالي المنتسبة الأخيار، أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبناء الصحابة، يسومهم الخسف، ويقودهم بالعسف، ويحكم

(١) هو إبراهيم بن محمد بن صاحب رسول الله وأحد العشرة المبشرين بالجنة طلحة بن عبيد الله، استشهد أبوه مع جده يوم معركة الجمل، روى عن كبار الصحابة منهم أبو هريرة وابن عمر وابن عمرو، يعد من أكابر التابعين ومن أكمل الرجال، ولي خراج العراق لعبد الله بن الزبير، قربه الحجاج بعد مقتل ابن الزبير، توفي عن نحو ثمانين عاما سنة ١١٠هـ وكان موته بعنى زمن الحج.

فيهم بغير السنة، ويظوهم يطغام أهل الشام، ورعاع لا روية لهم فى إقامة حق، ولا إزاحة باطل، ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله ينجيك، وفيما بينك وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم يخلصك إذا جاثك للخصومة فى أمته، أما والله لا تنجو إلا بحجة تقيمين لك النجاة. فابق على نفسك أودع، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

فاستوى عبد الملك جالسا وكان متكئا، فقال: كذبت - لعمرى بالله - ومننت ولؤمت فيما جئت به، قد ظن بك الحجاج ما لم يجد فيك، وربما ظن الخير بغير أهله، قم فأنت الكاذب المائن الحاسد، قال: فقامت والله ما أبصر طريقا، فلما خلفت الستر لحقتى لاحق من قبله، فقال للحاجب: احبس هذا، أدخل أبا محمد للحجاج، فلبثت مليا لا أشك أنهما فى أمرى، ثم خرج الأذن فقال: قم يا ابن طلحة فادخل، فلما كشف لى الستر لقينى الحجاج وأنا داخل وهو خارج فاعتنقنى وقبل ما بين عينى. ثم قال: إذا جرى الله المتحابين بفضل تواصلهم فجزاك الله أفضل ما جرى به أبا، فوالله لئن سلمت لك لأرفعن ناظرى، ولأعلن كعبك، ولأتبعن الرجال غبار قدمك، قال: فقلت: يهزأ بى.

فلما وصلت إلى عبد الملك أدنانى حتى أجلسنى مجلسى الأول، ثم قال: يا ابن طلحة لعل أحد من الناس شاركك فى نصيحتك؛ قال: قلت: لا والله، ولا أعلم أحدا كان أظهر عندى معروفا ولا أوضح يدا من الحجاج، ولو كنت محابيا أحدا بدينى لكان هو، ولكن آثرت الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فقال: قد علمت أنك آثرت الله عز وجل، ولو أردت الدنيا لكان لك بالحجاج أمل، وقد أزلت الحجاج عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما، وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استصغارا لهما، ووليته العراقين لما هنا من الأمور التى لا يرضها (يغسلها) إلا مثله، وأعلمته أنك استدعيتني إلى التولية له عليهما استزادة له ليلزمه من ذمامك ما يؤدى به عنى إليك أجر نصيحتك، فأخرج معه فإنك غير ذام صحبته مع تقريظه إياك ويدك عنده، قال: فخرجت على هذه الجملة.

من كتاب (الجلس الصالح والأنيس الناصح) للمعافى بن زكريا.



لا تتكلم إلا بالقرآن!

حدثنا أبو بكر، حدثنا محمد بن سعدان الساجي، أحد أصحاب الشافعي^(١)، حدثني علي بن عبد العزيز، صاحب أبي عبيد، حدثني أبو سعيد الربعي، حدثني محمد بن يزيد بن حبيش، حدثني رجل من إخواننا، قال:

بينما أنا بعرفة، إذ أنا بامرأة وهي تقول: (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ)، (وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ) فعلمت أنها ضالة، فقلت: لعلك ضالة؟ قالت: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا)، فأنخت بعيري، ونزلت عنه، وحملتها، فقلت: من أين أنت رحمك الله؟

قالت: (سبحانَ الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى). فعلمت أنها من أهل بيت المقدس، فجعلت أسأل عن زقاق المقدسيين، حتى انتهيت إلى قوم فسألوها فلم تكلمهم، فقالوا: لعلها حرورية^(٢) لا ترى أن تكلمنا، فقالت: (ولا تَقِفْ ما ليسَ لكَ به علمٌ) وحانت منها التفاتة فرأت طردانا قد عرفتها، فقالت: (وَعَلَامَاتِ وبالنجم هُمْ يهتدون) فعلمت أنها تريد الطرادات، فقصدت بها نحوها، فقلت: من أنادي؟ وعن من أسأل؟

فقالت: (يا داود إنا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ) (يا يحيى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ) (يا زكريا إنا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى) فعلمت أنها تريد داود ويحيى وزكريا، فجعلت أقول: يا داود، يا يحيى، يا زكريا، فخرج على ثلاثة فتيان، فقالوا: أمانا ورب الكعبة، أضللتها منذ ثلاث.

(١) هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ هـ/٧٦٦ - ٨٢٠ م)، أحد أبرز أئمة أهل السنة والجماعة، وأحد الأئمة الأربعة الكبار أصحاب مذاهب الفقه الإسلامي، يعد مؤسس علم أصول الفقه وأول من وضع كتاباً لأصول الفقه سماه الرسالة، قال عنه أحمد بن حنبل أنه مجدد الإسلام في القرن الثاني الهجري، يرجع نسبه إلى قريش لكنه ولد بغزة بفلسطين، ارتحل إلى أكثر من جهة كان آخرها مصر عام ١٩٩ هـ حيث مات ودفن بها عام ٢٠٤ هـ.

(٢) الحرورية: هي فرقة ضالة قويت شوكتها في عهد خلافة علي رضي الله عنه، سميت بهذا الاسم نسبة إلى بلدة حروراء بالقرب من الكوفة والتي تعد مركزاً لخروجهم على علي بن أبي طالب، وسبب ضلالهم هو تقديم العقل على النقل فكذبوا السنة الصحيحة لما قاسوها بعقولهم فعرفهم ابن حجر وغيره بأنهم لا يعترفون بالسنة فكفروا علياً رضي الله عنه، وكانت أعمالهم المنكرة كلها مردها إلى عقولهم، ولقد فسر علي رضي الله عنه قوله تعالى (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً) إلى آخر الآيات في سورة الكهف (١٠٣ - ١٠٦) قال: أنتم يا أهل حروراء. أما في هذه الرواية، فقد ظنوا أن المرأة تنتسب إلى هذه الطائفة لتشددها فهي لا تريد أن تكلمهم

فالتفتت إليهم. فقالت: (فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً، فليأتكم برزقٍ منه وليتلطف) فعلمت أنها أمرتهم أن يزودني فأخذوا مزاودي فذهبوا بها إلى السوق فملأوها، ثم أتوني بها، فقلت: ما حال هذه؟ قالوا: هذه أمانا، ولم تتكلم بشيء سوى القرآن منذ ثلاثين سنة خشية أن تنزل.

من كتاب (الفوائد والأخبار) لابن دريد.

□□□

خروج محمد النفس الزكية

فى سنة خمس وأربعين ومائة كان ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب^(١) رضى الله عنهم بالمدينة، وكان قد بويغ له فى كثير من الأمصار، وكان يدعى بالنفس الزكية لزهده ونسكه، وكان مستخفيا من المنصور، ولم يظهر حتى قبض المنصور على أبيه عبد الله بن الحسن وعمومته وكثير من أهله وعدتهم.

ولما ظهر محمد بن عبد الله بالمدينة دعا المنصور إسحاق بن مسلم العقيلي، وكان شيخا ذا رأى وتجربة، فقال له: أشر على فى خارجى خرج على، قال: صف لى الرجل، قال: رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذو علم وزهد وورع، قال: فمن تبعه، قال: ولد على وولد جعفر عقيل وولد عمر بن الخطاب وولد الزبير بن العوام وسائر قريش وأولاد الأنصار، قال له: صف لى البلد الذى قام به، قال: بلد ليس به زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة.

ففكر ساعة ثم قال: اشحن يا أمير المؤمنين البصرة بالرجال، فقال المنصور فى نفسه: قد خرق الرجل، أسأله عن خارجى خرج بالمدينة يقول لى اشحن البصرة بالرجال، فقال له: انصرف يا شيخ، ثم لم يكن إلا يسير حتى ورد الخبر أن إبراهيم قد ظهر بالبصرة، فقال المنصور: على بالعقيلي، فلما دخل عليه أدناه ثم قال له: إنى كنت قد شاورتك فى أمر خارجى خرج بالمدينة فأشرت على أن أشحن البصرة بالرجال أو كان عندك من البصرة علم. قال: لا، ولكن ذكرت لى خروج رجل إذا خرج مثله لم يتخلف عنه أحد، ثم ذكرت لى البلد الذى هو فيه فاذا هو ضيق لا يحتمل الجيوش، فقلت: إنه رجل سيطلب غير موضعه، ففكرت فى مصر فوجدتها مضبوطة، والشام والكوفة كذلك، وفكرت فى البصرة فخفت عليها منه لخلوها، فأشرت بشحنها، فقال له المنصور، أحسنت، وقد خرج بها أخوه، فما رأى فى صاحب المدينة. قال: ترميه بمثله، إذا قال: أنا ابن رسول الله صلى

(١) هو محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية، من أحفاد على بن أبى طالب رضى الله عنه، ولد بالمدينة عام ١٠٠هـ، من أتباع التابعين ومن رواة الحديث، عالما زاهدا غاية فى الورع، لما بويغ لبنى العباس اختفى هو وأخيه إبراهيم مدة خلافة أبى العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦هـ/٧٥٠ - ٧٥٤م)، فلما تولى أبو جعفر المنصور توهم منهما أن يخرجوا عليه وقد حدث ذلك بالفعل وكان ذلك من المدينة المنورة، فجد المنصور فى طلبهما، وكان الإمامان أبو حنيفة ومالك من أنصارهما، واستطاع بالفعل أبو جعفر المنصور القضاء على محمد وإبراهيم وقتلهما عام ١٤٥هـ.

الله عليه وسلم، قال هذا: وأنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 فقال المنصور لعيسى بن موسى^(١): إما أن تخرج إليه وأقيم أنا أمدك بالجيوش، وإما أن
 تكفيني ما أخف ورائي وأخرج أنا إليه، فقال عيسى: بل أقيمك بنفسى يا أمير المؤمنين،
 وأكون الذى يخرج إليه، فأخرجَه إليه من الكوفة فى أربعة آلاف فارس والذى راجل،
 وتبعه محمد بن قحطبة فى جيش كثيف، فقاتلوا محمداً بالمدينة حتى قتل وهو ابن خمس
 وأربعين سنة، ولما اتصل بإبراهيم قتل أخيه محمد بن عبد الله وهو بالبصرة سعد المنبر
 فنعاه وتمثل:

أبَا لِمَنَازِلِ يَا خَيْرَ الْفَوَارِسِ مِنْ يُفْجَعُ بِمِثْلِكَ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ فُجِعَا
 اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّنَى لَوْخَشِيَّتِهِمْ وَأَوْجَسَ الْقَلْبَ مِنْ خَوْفِ لَهُمْ فَزَعَا
 لَمْ يَقْتُلُوهُ وَلَمْ أَسْلَمْ أَحَيًّا لَهُمْ حَتَّى نَمُوتَ جَمِيعًا أَوْ نَعِيشَ مَعَا

من كتاب (مروج الذهب) للمسعودى.

□□□

(١) هو عيسى بن موسى بن محمد العباسى أبو موسى: أمير من الولاة القادة وهو ابن أخى السفاح.
 ولد ونشأ فى الحميرية. ولاة عمه الكوفة سنة ١٣٢هـ، وجعله ولى عهد المنصور فاستنزله المنصور عن ولاية
 عمه سنة ١٤٧هـ، وعزله عن الكوفة، وأرضاه بمالك وفير وجعل له ولاية عهد ابنه المهدي. فلما ولى المهدي
 خلع سنة ١٦٠هـ بعد تهديد ووعيد، فأقام بالكوفة إلى أن توفى عام (١٦٧هـ - ٧٨٣م).

أويس القرني

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء، الشعثة رؤوسهم، المغبرة وجوههم، الخمصة بطونهم، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإن خطبوا المتنعمات لم ينكحوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، وإن طلوعوا لم يفرح بطلعتهم، وإن مرضوا لم يعادوا وإن ماتوا لم يشهدوا. قالوا: يا رسول الله كيف لنا برجل منهم، قال: ذاك أويس القرني، قالوا: وما أويس القرني، قال: أشهل^(١) ذو صهوة^(٢) بعيد ما بين المنكبين معتدل القامة آدم شديد الأدمة^(٣) ضارب بذقنه إلى صدره رام ببصره إلى موضع سجوده واضع يمينه على شماله يتلو القرآن يبكي على نفسه ذو طمرين^(٤) لا يؤبه له متزرا بإزار صوف ورداء صوف مجهول في أهل الأرض معروف في السماء لو أقسم على الله لأبرقسه ألا وإن تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء ألا وإنه إذ كان يوم القيامة قيل للعباد ادخلوا الجنة ويقال لأويس قف فاشفع فيشفعه الله عز وجل في مثل ربعة ومضر. يا عمر، يا علي، إذا أنتما لقيتماه فاطلبا إليه أن يستغفر لكما يغفر الله لكما.

قال: فمكثا يطلبانه عشر سنين لا يقدران عليه، فما كان في آخر السنة التي هلك فيها عمر قام على أبي قبيس^(٥) فنادى بأعلى صوته: يا أهل الحجيج من اليمن، أفياكم أويس؟ فقام شيخ كبير طويل اللحية فقال: إنا لا ندري ما أويس ولكن ابن أخ لي يقال له أويس. وهو أحمل ذكرا، وأقل مالا، وأهون أمرا من أن نرفعه اليك، وإنه ليرعى إبلنا، حقير بين أظهرنا. فعمى عليه عمر كأنه لا يريده وقال: ابن أخيك هذا أبحر منا هو قال: نعم. قال: أين يصاب؟ قال: أراك عرفات.

قال: فركب عمر وعلى سراجا إلى عرفات فإذا هو قائم يصلى إلى شجرة، والإبل حوله ترعى. فشدا خماريهما ثم أقبلا إليه، فقالا: السلام عليك ورحمة الله، فخفف أويس

(١) الشهلة في العين أن يشوب سوادها زرقة..

(٢) الصهوة هي حمرة أو شقرة في الشعر.

(٣) الأدمة هي سمره البشرة.

(٤) الطمر هو الثوب البلي.

(٥) هو جبل أبي قبيس. يقع بالقرب من المسجد الحرام من الناحية الشرقية، سمي كذلك لأن الحجر الأسود قد اقتبس منه. وتشير الروايات أنه أول جبل وضع على وجه الأرض وقد بنيت الكعبة على ربوة يتصل أصلها بأصل هذا الجبل.

الصلاة ثم قال: السلام عليكما ورحمة الله، قالوا: من الرجل؟ قال راعي إبل وأجير قوم، قالوا لسنا نسألك عن الرعاية ولا عن الإجارة، ما اسمك؟ قال: عبدالله قالوا: قد علمنا أن أهل السموات والأرض كلهم عبيد الله، ما اسمك الذى سمتك أمك؟ قال: يا هذان ما تريدان إلى؟

قالا: وصف لنا محمد صلى الله عليه و سلم أويسا القرنى، فقد عرفنا الصهوية والشهولة، وأخبرنا أن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء فأوضحها لنا فإن كانت بك فأنت هو، فأوضح منكبه فإذا اللمة، فابتدراه يقبلانه، وقالوا: نشهد أنك أويس القرنى، فاستغفر لنا يغفر الله لك، قال: ما أخص باستغفارى نفسى ولا أحدا من ولد آدم، ولكنه فى البر والبحر من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، يا هذان قد شهر الله لكما حال وعرفكما أمرى، فمن أنتما؟

قال على عليه السلام: أما هذا فعمر أمير المؤمنين، وأما أنا فعلى بن أبى طالب فاستوى أويس قائما وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته وأنت يا على بن أبى طالب، فجزاكما الله عن هذه الأمة خيرا، قالوا: وأنت فجزاك الله عن نفسك خيرا.

فقال له عمر: مكانك يرحمك الله حتى أدخل مكة فأتيك بنفقة من عطائي وفضل كسوة من ثيابى هذا المكان ميعاد بينى وبينك، قال: ميعاد بينى وبينك لا أراك بعد اليوم، فعرفتى ما أصنع بالنفقة؟ وما أصنع بالكسوة؟ أما ترى على إزارا من صوف، ورداء من صوف، متى ترانى أخرقهما أو ترى أن نعلى مخصوفتان متى ترانى أبليهما، إنى قد أخذت من رعايتى أربعة دراهم فمتى ترانى آكلها يا أمير المؤمنين، إن بين يدي ويديك عقبة كؤودا لا يجاوزها إلا ضامر مخف مهزول فأخفف رحمك الله.

فلما سمع عمر ذلك ضرب بدرته الأرض ثم نادى بأعلى صوته: ألا لبيت عمر لم تلده أمه، ياليتها كانت عاقرا لم تعالج حملها، ألا من يأخذها بما فيها ولها. ثم قال: يا أمير المؤمنين خذ أنت هاهنا حتى آخذ أنا هاهنا، فولى عمر ناحية مكة وساق أويس إبله فوافى القوم بإبلهم، وخلقى عن الرعاية، وأقبل على العبادة حتى لحق بالله عز وجل.

من كتاب (صفة الصفوة) لابن الجوزى.

نصيحة الفضيل للرشيد

حدثنا سليمان بن أحمد ثنا محمد بن زكريا الغلابي ثنا أبو عمر الحرمي النحوي ثنا الفضل بن الربيع قال: حج أمير المؤمنين (هارون الرشيد)، فأتاني فخرجت مسرعا فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك. فقال: ويحك قد حاك في نفسي شيء، فانظر لي رجلا أسأله، فقلت: هاهنا سفيان بن عيينة^(١)، فقال: امض بنا إليه. فأتيناه ففرعنا الباب. فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعا. فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك، فقال: خذ لما جئناك له رحمك الله، فحدثه ساعة ثم قال له: عليك دين، فقال: نعم، قال: أبا عباس اقض دينه، فلما خرجنا قال: ما أغنى عنى صاحبك شيئا انظر لي رجلا أسأله، قلت ههنا عبدالرزاق بن همام^(٢)، قال: امض بنا إليه، فأتيناه ففرعنا الباب فخرج مسرعا فقال: من هذا؟ قلت أجب أمير المؤمنين، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك، فقال: خذ لما جئناك له، فحدثه ساعة ثم قال له: عليك دين، قال: نعم، قال: أبا عباس اقض دينه، فلما خرجنا قال: ما أغنى عنى صاحبك شيئا، انظر لي رجلا أسأله، قلت: ههنا الفضيل بن عياض^(٣)، قال: امض بنا إليه.

(١) هو الفضل بين الربيع بين محمد بن يونس بن محمد بن أبي قروة بن كيسان مولى عثمان بن عفان، كان حاجبا للخليفة الرشيد ولأبنيه الأمين، وكان أبوه هو الربيع بن يونس حاجبا للخلفاء المنصور والمهدى والهادي. لما ظفر المأمون بالخلافة وقتل الأمين استتر الفضل، ثم توسل إليه أن يعفو عنه. فعفا عنه واكتفى بأن أهمله ولم يستعمله إلى أن مات في السبعين من عمره عام ٢٠٨هـ.

(٢) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي. إمام ومحدث شهير زاهدا ورعا، ولد بالكوفة عام ١٠٧هـ، لقي الأعلام من علماء التابعين فروى عن عمرو بن دينار والزهرى وابن المنكدر وجعفر الصادق وغيرهم، روى عنه كثير من الأئمة مثل الشافعي وأحمد بن حنبل، قال عنه الشافعي: لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز، توفي عام ١٩٨هـ.

(٣) هو عبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني الحميري اليمني، الإمام العلامة والمحدث الشهير، ولد عام ١٢٦هـ حدث عن الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس وغيرهم من الكبار، حدث عنه ابن عيينة ابن حنبل يحيى بن معين وغيرهم كثير، كان ثقة في الحديث قيل أنه كان يحفظ سبعة عشر ألف حديث، قال عنه ابن معين: لو ارتد ما تركنا حديثه، توفي باليمن عام ٢١١هـ.

(٤) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر أبو علي القميمي اليربوعي الخراساني، أحد أعلام التصوف في القرن الثاني الهجري، تلقب بعباد الحرمين، ولد بسمرقند سنة ١٠٧هـ، روى ابن عساکر: أن الفضيل كان قاطع طريق وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تاليا يتلو (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) سورة الحديد آية ١٦، قال: يا رب قد آن، فرجع فأواه الليل إلى خربة فإذا فيها سابلة فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نصبح فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا، قال: فكفرت وقلت أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين هاهنا يخافونني، وما أرى الله ساقني إليهم

فأتيناه فإذا هو قائم يصلى يتلو آية من القرآن يرددها فقال: اقرع الباب، فقرعت الباب فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ماى ولأمير المؤمنين؟ فقلت: سبحان الله أما عليك طاعة، أليس قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ليس للمؤمن بذل نفسه. فنزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت، فدخلنا فجعلنا نجول بأيدينا فسبقت كف هارون قبلى إليه، فقال: يالها من كف ما أليتها إن نجت غدا من عذاب الله عز وجل، فقلت فى نفسى ليكلمنه الليلة بكلام من تقى قلب تقى، فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله. فقال: إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبدالله ومحمد بن كعب القرظى ورجاء بن حيوة، فقال لهم إنى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على، فعد الخلافة بلاء وعددها أنت وأصحابك نعمة، فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة من عذاب الله فصم الدنيا وليكن إفطارك منها الموت. وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المؤمنين عندك أبا وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم عندك ولدا، فوقر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك. وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدا من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إذا شئت. وإنى أقول لك فإنى أخاف عليك أشد الخوف يوما تزل فيه الأقدام، فهل معك رحمك الله مثل هذا أو من يشير عليك بمثل هذا؟

فبكى هارون بكاء شديدا حتى غشى عليه، فقلت له ارفق بأمر المؤمنين، فقال: يا ابن الربيع تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا، ثم أفاق فقال له: زدنى رحمك الله، فقال يا أمير المؤمنين بلغنى أن عاملا لعمر بن عبد العزيز شكى إليه، فكتب إليه عمر يا أخى أذكرك طول سهر أهل النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء، قال: فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له: ما أقدمك؟ قال خلعت قلبى بكتابك، لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل.

قال: فبكى هارون بكاء شديدا ثم قال له: زدنى رحمك الله، فقال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى صلى الله عليه وسلم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أرنى على إمارة، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت ألا تكون أميرا فافعل.

إلا لأرتدع، اللهم قد تبت إليك، وجعلت توبتى مجاورة البيت الحرام. روى عن الأعمش والثورى وابن المقبر وغيرهم. وروى عنه الثورى وابن عيينه والشافعى وابن المبارك وغيرهم. توفي عام ١٨٧ هـ.

فبكى هارون بكاء شديدا . فقال له : زدنى رحمك الله . قال : يا حسن الوجه أنت الذى يسألك الله عز و جل عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فإياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غش لأحد من رعيتك . فإن النبى صلى الله عليه و سلم قال : من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة ، فبكى هارون وقال له : عليك دين؟ قال : نعم ، دين لربى لم يحاسبنى عليه . فالويل لى إن سألتنى والويل لى إن ناقشنى والويل لى إن لم أ لهم حجتى . قال : إنما أعنى من دين العباد . قال : إن ربى لم يأمرنى بهذا ، إنما أمرنى أن أصدق وعده وأطيع أمره . فقال عز وجل : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) . فقال له : هذه ألفت دينار . خذها فأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادتك . فقال : سبحان الله أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئنى بمثل هذا ، سلمك الله ووفقك ، ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده ، فلما صرنا على الباب قال هارون : إذا دللتنى على رجل فدلتنى على مثل هذا ، هذا سيد المسلمين ، فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت : يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به . فقال لها : مثلى ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه ، فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه . فلما سمع هارون هذا الكلام قال : ندخل فعسى أن يقبل المال ، فلما علم الفضيل خرج فجلس فى السطح على باب الغرفة ، فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل يكلمه فلا يجيبه ، فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت : يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله ، فانصرفنا .

من كتاب (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) لأبى نعيم الأصبهاني .



مناظرات المأمون

كان يحيى بن أكثم يقول: كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء، فإذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة، وقيل لهم: انزعوا أخفافكم، ثم أحضرت الموائد، وقيل لهم: أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء، ومن خفه ضيق فلينزعه، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها، فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فيخروا وطيبوا، ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه. ويناظرهم أحسن مناظرة. وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين. فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس. ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون.

قال: فإنه يوما لجالس إذ دخل عليه على بن صالح الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين، رجل واقف بالباب عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة، ويطلب الدخول للمناظرة. فقلت: إنه بعض الصوفية، فأردت بأن أشير ألا يؤذن له. فبدأ المأمون فقال: ائذن له، فدخل رجل عليه ثياب قد شمرها ونعله في يده، فوقف على طرف البساط فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال المأمون: وعليك السلام، فقال: أتأذن لي في الدنو منك. قال: ادن، فدنا، ثم قال: اجلس، فجلس، ثم قال: أتأذن في كلامك. فقال: تكلم بما تعلم أن لله فيه رضا.

قال: أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت قد جلسته أبا اجتماع من المسلمين عليك، ورضا منك، أم بالمغالبة لهم والقوة عليهم بسلطانك؟

قال: لم أجلسه باجتماع منهم ولا بمغالبة لهم. إنما كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلى أحمداه المسلمون إما على رضا وإما على كره، فعقد لي ولآخر معي ولاية هذا الأمر بعده في أعناق من حضره من المسلمين. فأخذ على من حضر بيت الله الحرام من الحاج البيعة لي ولآخر معي فأعطوه ذلك إما طائعين وإما كارهين، فمضى الذي عقد له معي على هذه السبيل التي مضى عليها، فلما صار الأمر إلى علمت أنني أحتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها على الرضا، ثم نظرت فرأيت أنني متى تخليت عن المسلمين اضطرب حبل الإسلام ومرج عهدهم، وانتقضت أطرافه. وغلب الهرج والفتنة، ووقع التنازع، فتعطلت أحكام الله سبحانه وتعالى، ولم يحج أحد بيته، ولم يجاهد في سبيله، ولم يكن لهم سلطان يجمعهم ويسوسهم. وانقطعت السبيل. ولم يؤخذ لظلم من

ظالم، فقامت بهذا الأمر حيابة للمسلمين، ومجاهدا لعدوهم، وضابطا لسبلهم، وآخذا على أيديهم إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضا به فأسلم الأمر إليه، وأكون كرجل من المسلمين، وأنت أيها الرجل رسول إلى جماعة المسلمين، فمتى اجتمعوا على رجل ورضوا به خرجت إليه من هذا الأمر.

فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وقام، فأمر المأمون على بن صالح الحاجب بأن ينفذ في طلبه من يعرف مقصده. ففعل ذلك، ثم رجع وقال: وجهت يا أمير المؤمنين من اتبع الرجل. فمضى إلى مسجد فيه خمسة عشر رجلا في هيئته وزيه فقالوا له: لقيت الرجل. فقال: نعم! قالوا: فما قال لك. قال: ما قال لي إلا خيرا، ذكر أنه ضبط أمور المسلمين إلى أن تأمن سبلهم، ويقوم بالحج والجهاد في سبيل الله، ويأخذ للمظلوم من الظالم، ولا يعطل الأحكام. فإذا رضى المسلمون برجل سلم الأمر إليه وخرج منه. وقالوا: ما نرى بهذا بأسا، وافترقوا. فأقبل المأمون على يحيى، فقال: كفيينا مؤونة هؤلاء بأيسر الخطب، فقلت: الحمد لله الذى ألهمك يا أمير المؤمنين الصواب والسداد فى القول والفعل.

من كتاب (مروج الذهب) للمسعودى.

